الانسان الكامل

للدكتور جواد علي

عرّف المتصوفة الإنسان الكامل بقولهم : هو الإنسان الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية الكلية والجزئية ، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية ؛ فمن حيث روحه كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب ، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات ؛ فهو الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية . فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقائقه بعينها نسبة الروح الانساني إلى البدن وقواه . وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير ، كما أن النفس الناطقة قلب الانسان ؛ ولذلك يسمى العالم بالإنسان الكبير[١]

ويكاد يكون الإنسان الكامل نفس « الانسان الأول » لدى أرسطو[٢] ، أو « الحكيم » لدى أفلاطون ، أو « الانسان الفاضل » لدى الفارابي ، أو « الإنسان المطلق » لدى جماعة إخوان الصفاء في البصرة [٣] ؛ وتكاد الفكرة تكون نفس فكرة « الانسان الذي لا إنسان فوقه » übermensch لدى هايغريش مولر من رجال أواخر القرن السابع عشر مبتدع هذه اللفظة لأول مرة[٤] والشاعر الشهير جوته ، والفيلسوف نيتشه[٥] أو فكرة السوبرمان في اللغة الانكليزية Superman مع اختلاف بسيط سببه وجهة النظر والتفكير

وفكرة الانسان الكامل من الأفكار التي ترد على لسان المتصوفة كثيراً . وقد استعملها المتصوف الشهير محي الدين بن العربي[١] المتوفى سنة (٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م) وعلى الأخص في كتبه ومؤلفاته . وتكاد الفكرة تكون محور تعاليمه والنقطة التي تدور حولها أبحاثه التصوفية[٢] . وابن العربي هذا من الشخصيات الاسلامية العظيمة التي تنتمي إلى أرومة عربية عريقة في القدم . شخصية أثرت في الحياة الروحية الاسلامية تأثيراً عظيماً ولا سيما في الحياة العقلية للأتراك والفرس[٣] . وتتصل آراء هذا الصوفي بعضها ببعض بصورة متسقة منتظمة اتصال الحلقة أو السلسلة على غموض بعض أفكاره وعويص معانيه ، وذلك أمر يقتضيه التصوف ذاته والموضوع الذي يدور حوله البحث . والظاهر أنه استمد آراءه في الانسان الكامل كما استمد ذلك سائر المتصوفة من الصورة التي رسمها مثاليو المسلمين للنبي الكريم ، إذ ترى الصورة التي تصورها المتصوفة للانسان الكامل تسير جنباً لجنب مع الصورة التي يذكرها أصحاب السير للرسول نبينا العظيم[٤]

استعمل محي الدين بن العربي هذا الاصطلاح كاستعمال أرسطو لكلمة « الانسان الأول »[٥] أو استعمال فلاسفة اليونان لكلمة nus أو العقل ، أو كلمة arché تقريباً[٦] ؛ استعمل هذا الاصطلاح ليدل على نسبة العقل الأول إلى العالم الكبير أو النفس الجزئية بالنسبة إلى النفس الكلية ليدل على فكرة طالما أفنى المتصوفة أنفسهم شوقاً إليها إلا وهي فكرة المعرفة والتجلي عن طريق الوجد والفناء حتى يصل الانسان في النهاية إلى « الشجرة » وهي درجة الانسانية الكاملة التي لا إنسانية فوقها أبداً[٧] . ونظراً لمكانة هذه الفكرة وما يحيط بها من إبهام وغموض ، تصورها المسلمون لذلك بصور شتى وأشكال لا حد لها خرجت في كثير من الأحايين من عالم الفلسفة الاسلامية إلى عالم آخر أبعد من عالم الاسلام والتصوف بدرجات

(١) راجع تعريفات السيد الجرجاني طبعة استانبول سنة ١٣٢٧ ص ٢٥

(٢) راجع : Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gest Bd 79 1925 p. 241

(٣) وكتاب أرسطو Theol d. Arist a. o. s.234
Max Horten Philo d. Islam p, 347

(٤) راجع كتاب Geistlichen Erquickst undes und Schmidt Phil wort p. 679

(٥) راجع من ذلك Berg der ub in der modernen literatur 18 97 R. m. meyer der uber in der Zeitschrift f. wortforschung Bd 1 1900

(١) راجع عنه الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ١٦٣

(٢) راجع مجلة الجمعية الشرقية الألمانية مجلد ٧٩ ص ٢٣٨ سنة ١٩٢٥

(٣) نفس المصدر

(٤) راجع : Tor Andrae die Person mahammeds in lehre und glauben seiner gemeinde 1917 Kap. 6

(٥) راجع Theol d. Aristo s. o. p. 234

(٦) Max Horten phil d. Islam p. 347
وكذلك Goldzfher 42 f

(٧) راجع مصطلحات الصوفية وكتبهم أمثال : اصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية طبعة استانبول سنة ١٣٢٧

وقد ظن المستشرق ماكس هورتن أن ذلك العالم هو العالم البراهمي وهو عالم غني بهذه الأفكار مملوء بهذه الآراء[١]، وظن المستشرق شـيدر — وهو مستشرق يرجع أصل كل شيء في الحضارة الاسلامية إلى مصدر إيراني قديم — أن مصدر هذه الفكرة الآراء المانوية الايرانية القديمة. يرى أن هذه الآراء أثرت في التصوف كما أثرت في فلسفة أبي بكر الرازي وإخوان الصفاء وناصر خسرو وغيرهم، وذلك لوجود تشابه رآه هذا المستشرق بين فكرة الانسان الكامل وبين المعتقدات المانوية القديمة[٢]

وترد نفس هذه الفكرة في فلسفة فيلون Philon[٣] وفي الفلسفة البوذية حيث يكون بوذا أكمل مخلوقات الله، فيه اجتمعت المتناقضات، وفيه تم كل شيء، فهو الانسان الكامل[٤] وهو رمز وحدة الوجود، فيه اجتمعت الروح بالمادة بصورة لا يتصورها إلا في الله، لذلك هو المثل الأعلى للبشرية، وهو الانسان الكامل؛ وعلى كل إنسان يريد أن يصل إلى مرتبة البشرية الكاملة أن يسمى سمياً روحياً للوصول إلى هذه الدرجة التي لا تتم إلا على يد قطب أو وسيط، وهذا القطب أو الوسيط هو نفس الوسيط الذي استعمله الصوفية والاسماعيلية والشيع الاسلامية السرية للوصول إلى واجب الوجود[٥]

وقد مزج المغيرة وهو أحد الذين اتهموا في دينهم (أحرق عام ٧٣٧ م[٦]) بين فكرة «الانسان المطلق» وبين نظرية العدد والبروج التي ترد في مذهب الفيثاغورسيين والمنجمين فقال بأن الانسان أكمل المخلوقات طراً، لأن له اثني عشر عضواً يقابل كل عضو من هذه الأعضاء برجاً من البروج؛ لذلك فالعالم الأكبر اجتمع هنا في العالم الأصغر، فهو هو هو، والعالم الأصغر هو نفس العالم الأكبر. وحيث أن آدم هو أبو البشر فهو يمثل الصلة بين العالم الأكبر Markokosmus وبين العالم الأصغر Mikrokosmus؛ فهو إذاً أكمل البشر وهو الانسان الأول أو الانسان الكامل على الاطلاق

وتقارب هذه النظرية، على ما يقوله ماكس هورتن، نظرية «الحروفية» وهم الذين يمثلون فلسفة العدد في الاسلام، والذين ينتهون بحكم هذه التعاليم إلى الحلولية على نحو ما ينتهي إليه أمثال هؤلاء في الشرق والغرب، مثل ما انتهى إليه نيقولا كوزانوس Nicolaus Cusanus[١] الذي كان يقول بأن الواحد مرآة صافية للكل، وأن العالم الأصغر هو هو العالم الأكبر، فيه حل الواحد وفي كل شيء حل الله، على نظرية ما في الجبة إلا الله. وهو في تعاليمه يشابه الفيلسوف العربي الكندي ويكاد يكون أحد تلاميذه أو أتباعه[٢]. ومثل الفيلسوف لايبنتز Leibnitz[٣] في نظريته عن الذرات الروحية Monaden أو طاجينلا الايطالي المشهور والشاعر الشهير جوته في مذهب الحلول[٤]

وهذا الإنسان الكامل الذي أبدع في وصفه المتصوفة، هو إنسان خيالي روحاني ليس له مثيل بين سكان الأرض، يجمع بين العالمين العالم الروحاني والعالم المادي، لا يعبأ بهذا الكون ولا يقيم له وزناً، وهو على طرفي نقيض مع «الإنسان الأعلى»، أو السوبرمان الذي ابتدعه فلاسفة أوربا المحدثون، ويعنون بذلك الإنسان الذي يحيد هذا الكون ويقدسه، يريد السيطرة ويحترم مبدأ القوة، لتناقض موجود في الأساس بين الفكرتين الشرقية الخيالية والغربية العملية الاكتشافية

وقد جمع عبد الكريم الجيلي المتوفى عام ١٤١٠ م تقريباً آراء فلاسفة الاسلام في الانسان الكامل، في كتاب سماه: «الانسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل» استفاد منه المستشرق الانكليزي نيكلسون كثيراً إذ ذكر وجهات نظر المسلمين في هذا الانسان أثناء بحثه عن التصوف الاسلامي فليرجع إليه[٥].

جواد هي

---

(١) راجع Max Horten Die philo des Islam p. 105 ff

(٢) راجع المجلة الشرقية الألمانية Z. Dmer مجلد ٧٩ ص ٢٤٢

(٣) راجع Goldziher k. 42 f

(٤) راجع Tiele Kompend d. rel Gesch 1903 s, 238

(٥) Max Horten p. 348

(٦) نفس المصدر ص ٣٤٧

وكذلك Goldziher abh. G. G. W. 1906

أيضاً Jacob Bekhschiffe abh. Bayr A. W. 1909 47 A. 2.

١٨٠٥

(١) وهو أحد مشاهير المتصوفة في أوربا ولد عام ١٤٠١ وتوفي عام ١٤٦٤ راجع عنه ويند لبند في كتابه تاريخ الفلسفة ص ٢٦٧، وكذلك Max Horten p. 348

(٢) نفس المصدر

(٣) فيلسوف ولد عام ١٦٤٦ وتوفي عام ١٧١٦ وقد تأسست جمعية عرفت باسم جمعية لايبنتز للأبحاث. مقرها برلين

(٤) راجع ديوانه Ost West Diwan وأشاره

(٥) R. A. Nikelson the Perfect man, in studies in Islam mysticism 1921